أساتذة التعليم العالى

● **مكانتهم :**

الازدراء الذى رافق مدرس التعليم الابتدائى فى كل مكان من العالم ، وأصاب المواد السهلة التى يدفع التلاميذ نفقات تعليمها ، لم يتجاوزهم فى إسبانيا إلى الذين ينهضون بالتعليم العالى ، وعلى النقيض ، كانت هذه المهنة تؤدى إلى رفع الذين يعملون فيها درجات عالية أمام عامة الجماهير ، توازى تلك التى بلغها آخرون عن طريق أسرهم العريقة ، أو لمكانتهم الدينية ، أو للمناصب العليا التى يشغلونها ، مدنية أو عسكرية ، وما كان لأحد أن يفكر أن **دحون** ، حبيب بن الوليد بن حبيب ، ويرتبط مع الأسرة الإسبانية المالكة بسبب ، يتناسى وضعه الطبقى العريق ، بعد أن رحل ، وحج ، ولقى أهل الحديث فكتب عنهم ، وقفل بعلم كثير ، فيذهب إلى المسجد الجامع فى قرطبة ، ويحيط نفسه بحلقة من الطلاب يرتوون من فيض علمه الغزير ، أو أن الأئمة ، والقضاة ، والحكام ، والوزراء ، يتواضعون فتكون لهم حلقهم ، وحولهم يتجمع الشباب المتحمس ، فيلقون عليه دروسهم آخرة النهار ، بعد أن أمضوا أوله فى مكاتبهم ، يصرفون مهام وظائفهم الرسمية[1] .

وقبل ذلك كله ، نلحظ أيضا أن إناسا ينتمون فى طبقات متواضعة ، وفى الوقت نفسه يتمتعون بذكاء يقظ ، يتعرف الناس عليهم بدءا فى حلقات الدرس ، ومنها تنطلق شهرتهم ، ويصبحون موضع الثناء من عامة الناس ، وكل هؤلاء هم الذين يشيرون على رئيس الدولة بالمرشحين الذين يتولون المناصب الكبرى الشاغرة[2] ، وعليه أن يستجيب لهم ، لأنه يود أن يختار شخصيات ذات شعبية وهيبة ، وليس أمامه من سبيل إلا هذا الطريق ، حيث لا توجد مجالس سياسية يمكن أن يلمع فيها المرء ، ولا جمعيات علمية ، ولا هيئات تجرى فيها المناقشات علنا وفى حرية ، وليست هناك أية وسيلة أخرى غير التدريس فى المساجد . ومن جانب آخر ، لم يكن لدى الأدباء الذين ذاع صيتهم ،

(١) الإحاطة ، جـ ٢ ، الورقة ١١٠ ، مخطوطة الاسكوريال .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٢٧٦ ، طبعة مدريد .

وعمت شهرتهم ، وسائل مناسبة تعينهم على نشر إبداعهم ، وإذاعة مؤلفاتهم ، غير الدروس العامة والتعليم ، وهو ما يفسر الأسلوب الذى كان يتبع فى هذه الدروس ، مثل دروس **ابن فطيس** ، وهو شخصية تنتمى إلى **أعرق أسر قرطبة** ، **وأعرضها ثراء** ، **وأمالى أبى على القالى** ، **ودروس ابن سعيد** ، وآخرين غيرهم . ولم يكن يختلف إلى هذه الدروس شباب الدارسين من الطلاب فحسب ، وإنما تجذب أيضا زهرة المجتمع القرطبى وصفوته .

ولم يكن ينقص القائمين بهذه المهنة النبيلة الزهو والاعتداد بأنفسهم ، ويقص علينا أحد تلاميذ أبى وهب بن الأعلى يقول : كان أستاذى يقيم قريبا من مقبرة قريش فى قرطبة ، فى بستان له يقوم على غرسه بنفسه ، وذات يوم ، بعد أن قدم طعام الغداء لتلاميذه ، جاء من يطلب الإذن بالدخول ، وكان القادم الوزير **هشام** بن عبد العزيز ، وأقرب الناس إلى الأمير ، وقد رحب به الأستاذ ، وعندما دخل وجدنا نتناول خضرا مطبوخة ، وهى مما غرس فى الحديقة ، وقد ارتبك صاحب البيت قليلا قبل أن يدعوه ، خشية أن يكون الطعام دونه ، ولكن هاشما بادره : ألا تدعونى لمشاركتهم ، أو تخاف أن آتى على المائدة بأجمعها ؟ فقال : هى دونك . فقال : ولماذا فشمر عن ساعده ، واقتحم المائدة معنا ، وبعدها انتحى به جانبا ، فاستشاره فى بعض القضايا الفقهية ، وتلقى رأيه ، وعندما خرج هممنا بالوقوف تحية ، ولكن الأستاذ أشار إلينا فى قسوة أن أجلسوا ، وبعد أن ودعه عاد فعتب علينا فى شدة أننا أسرفنا فى الأدب والمجاملة ، ولم نكن عاديين[1] .

[ويروى المقرى فى كتابيه نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، أن **عبد الرحمن الناصر** لما أعذر لأولاد ابنه أبى مروان عبيد الله ، اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء ، ولم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته ، وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون ، ومن يليهم من العلماء ، والعدول ، ووجوه الناس ، فتخلف من بينهم المشاور **أبو إبراهيم** ، افتقد مكانه لارتفاع منزلته فسأل الخليفة الناصر فى ذلك ، إذ **أبو إبراهيم** من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار ، ووجد الناصر بسبب ذلك على أبى إبراهيم ، وأمر ابنه ولى العهد الحكم بالكتاب إليه ، والتفنيد له ، فكتب إليه الحكم رقعة نسختها :

---

(١) التكملة ، الترجمة رقم ١٢٠٠ ، طبعة مدريد .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك ، وسددك ورعاك .

« لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى – أبقاه الله – الأولياء الذين يستعد بهم وجدك متقدما فى الولاية ، متأخرا عن الصلة ، على أنه قد أنذرك – أبقاه الله – خصوصا للمشاركة فى السرور الذى كان عنده ، لا أعدمه الله توالى المسرة ، ثم أنذرت من قبل إبلاغا فى التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين فى أفكاره ومعاتبتك عليه ، فأعيت عليك عنك الحجة ، فعرفنى – أكرمك الله – ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سر به ، ورغب المشاركة فيه ، لنعرفه – أبقاه الله – بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة إليه إن شاء الله تعالى » .

فأجابه أبو إبراهيم :

« سلام على الأمير سيدى ورحمة الله .

« قرأت – أبقى الله الأمير سيدى – هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفى لنفسى ، إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه ، لعلمى بمذهبه ، وسكونى إلى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم ، **فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا** يمتهنونها بما يشينها ، ولا بما يغض منها ويطرق إلى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ، ويتزينون بها عند رعاياهم ، ومن يفد إليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ولعلمى بمذهبه توقفت ، إن شاء الله تعالى » .

« فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبى إبراهيم إسحاق أعجبه ، واستحسن اعتذاره ، وزال ما بنفسه عليه] [1] .

ويروى الفقيه أبو القاسم بن مفرج : « كنت أختلف إلى الفقيه **أبى إبراهيم** – رحمه الله تعالى – فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية ، فإنى لعنده بعض الأيام فى مجلسه بالمسجد المنسوب لأبى عثمان ، الذى كان يصلى به قرب داره ، بجوفى قصر قرطبة ، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة ، وذلك بين الصلاتين ، إذ دخل عليه خصى من أصحاب الرسائل ،

(١) اكتفى المؤلف بإيراد القصة التالية لهذا العالم الجليل وضممت إليها هذه القصة لأبين : كم هان علماؤنا على أنفسهم فهانوا على الناس .
والقصة فى جـ١ ص ٣٧٦ – ٣٧٧ ، وأزهار الرياض ، جـ٢ ص٢٨٢ . (المترجم)

جاء من عند **الخليفة الحكم** ، فوقف وسلم ، وقال له : يا فقيه ، أجب أمير المؤمنين أبقاه الله ، فإن الأمر خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ، وقد أمرت بإعجالك ، فالله .. الله !

« فقال له : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ، ولا عجلة ، فارجع إليه ، وعرفه ، وفقه الله عنى ، أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله تعالى ، مع طلاب العلم ، أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ ، فهم يقيدونه عنى ، وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضا الله وطاعته ، فذلك أوكد من مسيرى إليه الساعة ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلىّ من هؤلاء المحتسبين فى ذات الله ، الساعين لمرضاته ، مشيت إليه إن شاء الله تعالى . ثم أقبل على شأنه .

« ومضى الخصى يهينم متضاجرا من توقفه ، فلم يك إلا ريثما أدى جوابه ، وانصرف سريعا ساكن الطيش ، فقال له : يا فقيه ، أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خيرا عن الدين ، وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين ، وأمتعهم بك ، وإذا أنت أوعيت فامض إليه راشدا إن شاء الله تعالى ، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك وتمضى معى .

« فقال له : حسن جميل ، ولكنى أضعف عن المشى إلى باب السدة ، ويصعب على ركوب دابة لشيخوختى ، وضعف أعضائى ، وباب الصناعة الذى يقرب إلى من أبواب القصر المكرم أحوط وأقرب وأرفق بى ، فإن رأى أمير المؤمنين – أيده الله تعالى – أن يأمر بفتحه ، لأدخل إليه منه ، هون على المشى ، وودع جسمى ، وأحب أن تعود وتنهى إليه ذلك عنى ، حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك حتى تعود إلى فإنى أراك فتى سديدا ، فكن على الخير معينا .

« ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت ، وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ، ومنه خرجت إليك ، وأمرت بملازمتك ، مذكرا بالنهوض عند فراغك . وقال : افعل راشدا .

« وجلس الخصى جانبا ، حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه كأفسح ما جرت به عادته ، غير منزعج ولا قلق ، فلما انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ، ثم مضى إلى

الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على ذلك الباب فأعيد إغلاقه على إثر خروجه .

« قال ابن مفرج : ولقد تعمدنا فى تلك العشية ، إثر قيامنا عن الشيخ أبى إبراهيم ، المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدبر القصر لنرى تجشم الخليفة له ، فوجدناه كما وصف الخصى مفتوحا ، وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين ، ما بين كناس وفراش ، متأهبين لانتظار أبى إبراهيم ، فاشتد عجبنا لذلك ، وطال تحدثنا عنه » .

ويعلق المقرى على الرواية مأخوذا بروعة هذا الكبرياء : « فهكذا تكون العلماء مع الملوك ، والملوك معهم ، قدس الله تلك الأرواح » ![1] .

وقد قصد المظفر ، عبد الملك ابن أبى عامر ، زيارة **المشكيالى** ، محمد بن إبراهيم ، من أهل طليطلة ، « وكان له ورع وزهد وتواضع ، متقللا من الدنيا ، عاملا بالعلم ، ثقة ، لا تأخذه لومة لائم فى صدعه الحق بالحق ، إثر صلاة جمعة ، وكان الشيخ قد لزم داره ، وكان يسمع عليه فيها ، فلما استأذن المظفر ، وعلم بذلك الشيخ ، قال لمن حوله من طلبة العلم : لا تقوموا . فامتثلوا أمره ، فدخل المظفر عليه فأكرم مثواه . ثم استنفره الدعاء ، فقال محمد بن إبراهيم : اللهم أدخل فى قلوب رعيته الطاعة ، وأدخل لهم فى قلبه الرأفة والرحمة ، ثم انصرف »[2] .

ويروى **ابن الأبار** فى معجمه ، عن أبى بكر بن ليلى ، كاتب **الأمير إبراهيم** بن يوسف بن تاشفين : « كنت يوما عند القاضى **أبى على الصدفى** ، إذ جاء **وزير ابن تاشفين** : يعنى هذا ، فقال : إن الأمير أبا اسحاق يريد أن يسمع عليك الحديث ، يعرض له بالمشى إليه ، فقال له : لهذا جلست ، فكرر ذلك عليه ، فأجابه بمثله ، ثم رغب إليه بعد أن تكون له منه دولة فى منزله ، فأسعفه ، على أن يصل بعد الفراغ من إسماع أصحابه ، والقيام من مجلسه » . وكان الذى حققه الأمير كما نرى أن يجىء إلى الأستاذ فى بيته ، ليأخذ درسا خاصا ، فى ساعة محددة ، غير تلك التى يحضر فيها الطلاب .

---

(١) نفح الطيب ، جـ١ ص٢٤٤ ، طبعة أوربا . و جـ١ ص٣٧٧ – ٣٧٩ ، طبعة إحسان عباس ، وأزهار الرياض ، جـ٢ ص٢٨٥ ، طبعة القاهرة .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة ١٠٥٢ ، طبعة القاهرة ، وفى الأصل خطأ فى ذكر رقم الترجمة . (المترجم)

وحين انحدرت إسبانيا الإسلامية إلى هاوية الضعف والتخلف كان لابد أن ينحط أمر التعليم ، وأن ينظر الناس إلى المعلم نظرة احتقار شديدة ، وهو ما نجده « فى آخر صورة ظهر فيها أدب الأندلسيين المسلمين ، وهى آثارهم التى كتبوها باللغة الإسبانية ، ويطلق عليها اسم **الخميادية** , al jamiada وهى تحريف إسبانى للفظ العجمية التى كانت تطلق عليها ، وهو يصور حالة الرعب التى كان الموريسكيون[1] ، أصحاب هذه الكتابات ، يعيشون فى ظلالها بعد سقوط غرناطة فى يد النصارى ، وخاصة عندما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التنصر ، وتتعقبهم محاكم التفتيش وقد انقطعت انقطاعا يكاد يكون تاما الأسباب بين معارفهم الضئيلة عن علوم الإسلام وما كان لأجدادهم الأمجاد من تقاليد علمية رفيعة ، ولكنهم لم يتخلوا قط عن أحرف الهجاء العربية ، واستمروا يكتبون بها ما لديهم من المعارف للحفاظ على عقيدتهم من ناحية ، ولتعمية متعقبيهم عن فحوى ما يكتبون من ناحية أخرى . ومن الطبيعى أن نجد موضوعات هذه الكتابات المستعجمة وروحها إسلامية خالصة ، ولم نتوصل إلى الكشف عن سرها وحل رموزها إلا فى القرن التاسع عشر .

« وأكثر هذه الكتب التى تضمها خزائن الموريسكيين ذات موضوعات دينية ، أو خرافية أو تشريعية . وعندما أخذ الإسبان ينفذون سياسة طرد بقايا المسلمين من البلاد عمد أصحابها إلى إخفائها وسترها عن العيون ، ثم أخذت تظهر بعد ذلك شيئا فشيئا ، ولا نزال نعثر على أطراف منها حتى الآن . ومن أجل مؤلفيها الذين وقفنا على أسمائهم **عيسى بن جابر** ، فقيه المسجد الجامع فى شقوبية Segovia ، ويرد اسمه فى كتب المستعجمين على صورة Iça de Gabir وأهم كتبه « مختصر فى السنة » ، واشتهر باسم « الكتاب الشقوبى » ، وهو موجز فى الأخلاق والشريعة ، ولابد أنه كان كثير التداول بين الموريسكيين ، لأننا وجدنا منه نسخا عديدة .

« وفاتحة الكتاب عربية الروح والسياق ، رغم أنها باللغة القشتالية (الإسبانية) ، ويقع فى فصول كثيرة عن الإيمان وما هو وما ينبغى على المسلم الاعتقاد به ليصح دينه ، والوضوء والطهارة ، وما يتطهر به ، والتيمم ، والصلاة ومواقيتها ، وهو يصف طريقة الصلاة ، وما يجب أن يجهر به الإنسان فيها ، وما يجب أن ينطق به سرا ، ويكتب

---

(١) الموريسكيون ، تطلق على المسلمين الذين تخلفوا فى إسبانيا بعد سقوط دولة الإسلام ، وأكرهوا على اعتناق الكاثوليكية ، ثم طردوا نهائيا عام ١٦١٣ . (المترجم)

المصطلحات بالعربية ، ويرسمها بحروف لاتينية تدلنا على الطريقة التى كان مسلمو الأندلس ينطقون بها العربية فى أواخر أيامهم ، ويذكر فى فاتحة الكتاب أنه ألفه استجابة لطلب رجل تونسى ، يدعى سيدى أبو القيس Citi Bulgaiz[1] .

يرى **عيسى بن جابر** هذا أن أساتذة التعليم العالى أقل احتراما من التجار والحرفيين[2] ، وأرفع قليلا من العمال اليدويين والناس الحقراء . ويقول فى كتابه مختصر السنة : إن العالم ينهض على اثنتى عشرة طبقة ، ويحكم بها : الخليفة ، والمفتى ، والقواد ، والفقهاء ، والأعيان والتجار ، والحرفيون ، والمدرسون الذين يعلمون القرآن والسنة والتوحيد والفلسفة والمنطق والطب وغيرها ، والطلاب الذين يدرسون الفقه أو العلوم والفنون ، والعمال اليدويون كالحمالين والخفارين والريفيين وغيرهم ، وحقراء الناس كاللصوص والقوادين والقرصان ومن إليهم ، وتأتى المرأة أخيرا .

• الصفات المطلوبة فى الأستاذ :

لكى تكون أستاذا يجب أن تكون عالما ، وهو شرط فهمه المسلمون منذ اليوم الأول ، وكان **الإمام مالك** رضى الله عنه يقول : « أدركت بهذا البلد مشيخة لهم فضل وعبادة يحدثون ، ما سمعت من واحد منهم حديثا قط ، قيل له : ولم يا أبا عبد الله ؟ قال : لم يكونوا يعرفون مايحدثون » . « وروى عنه أيضا أنه قال : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ، فقد أدركت سبعين ممن يقول : قال فلان قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين – وأشار إلى أساطين مسجد رسول الله ﷺ – فما أخذت عنهم شيئا ، وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أمينا ، لم يكونوا من أهل هذا الشأن ،

(١) جاءت عبارة المؤلف فى الفقرة التالية شديدة الإيجاز ، ومعها يبدو للقارئ أن عيسى بن جابر هذا عاش خلال الحكم الإسلامى ، والواقع أنه عاش مسلما تحت الحكم الكاثوليكى ، وعانى ورفاقه فى الدين أهوالا مريعة ، وقد أتيت بما بين الخاصرتين نقلا من كتاب أنخل جونثالث بالنتيا ، « تاريخ الأدب الأندلسى » ، وكان المؤلف تلميذا أثيرا عند ريبيرا ، وذلك توضيحا للقضية ، ووضعها فى مناخها الطبيعى .

(٢) شىء كهذا ، أو قريب منه ، يحدث بيننا الآن واقعا ، وإن لم يأخذ شكل نظرية ، فيا يتصل بالثقافة والمثقفين عموما ، يعملون فى التعليم أو خارجه . (المترجم)

ويقوم علينا ابن شهاب[1] . فكنا نزدحم على بابه[2] . « فلا تتعلموا إلا على أولئكم الذين درسوا وحضروا مجالس العلماء الذين يعلمون »[3] .

ولبلوغ هذه الغاية حرصت إسبانيا الإسلامية منذ أيامها الأولى ، وفيما بعد ، على أن تتلقى العلم على يد أساتذة من المشرق ، يجيئون إليها للتدريس فى معاهدها ، أو فى الأقل على يد إسبانيين ذهبوا إلى هناك للحج ، أو لمجرد الرحلة ، ودرسوا على كبار علمائه ، لأن المشرق مهد الثقافة العربية ، فمن أراد أن يرتوى من ينابيعها عليه أن يردها فى مصادرها الأولى .

وما إن يبلغ هؤلاء الإسبان الراحلون أرض وطنهم عائدين ، ومعهم ما درسوا وعرفوا من كتب جديدة فى المشرق ، حتى يتزاحم حولهم الطلاب ، وحول أولئك الذين بلغوا قدرا عاليا من العلم ، وذاعت شهرتهم بين الناس ، حتى ولو لم يرحلوا ، يطلبون ما عندهم من معرفة ، ولم يكن أولئك وهؤلاء يستجيبون فى سهولة لما يطلب منهم ، غير أنهم ازاء كثرة الإلحاح وشدة الإصرار ، قد يسلمون لهم فى نهاية الأمر بما يريدون ، ولو لعدد محدود من الطلاب لا يتجاوز عدة أفراد من معارفهم المقربين ، وسوف ينتهى بهم الأمر فى نهاية المطاف أعلاما ينشرون العلم ويشيعونه بين الناس .

وحدث فى إسبانيا الإسلامية يومها ما يحدث فى أى بلد متخلف يستجمع كل قواه ليبلغ من التقدم ما حققه آخرون ، ومن ثم عملت جاهدة على أن تستفيد بأقصى ما فى ذرعها ، وبكل ما فى طاقتها ، من الأساتذة الذين استقدمتهم لكى يقوموا بالتدريس ، فاتسمت حلقاتهم بطابع الجدية والحرص الشديدين ، حتى ولو كانوا فى بلادهم الأصلية موضع السخرية والإعراض .]ويروى **ابن الفرضى** فى كتابه **تاريخ علماء الأندلس أن** : أحمد بن الفضل الدينورى ، قدم الأندلس فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، وكان يخبر أن مولده بالدينور ، وأنه تحول إلى بغداد ، وأنه أقام برهة لا يكتب ،

---

(١) هو محمد بن مسلم ، المعروف بابن شهاب الزهرى ، ولد سنة ٥٠ هـ وتوفى عام ١٢٤ هـ وقال عنه الليث بن سعد : ما رأيت عالما قط أجمع من الزهرى ، يحدث فى الترغيب فتقول لا يحسن غيره ، وان حدث عن العرب والأنساب قلت : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة فكذلك . وكان أستاذا للإمام مالك رضى الله عنهما . (المترجم) .

(٢) فهرسة ابن خير ، ص ١٩ ، طبعة مدريد .

(٣) تكملة الصلة ، ص ١٢ .

ثم تعلم الكتابة بالدامور ، فكان يكتب كتابا ضعيفا يخل بالهجاء ... وكانت عنده مناكير ، وقد تسهل الناس فيه ، وسمعوا منه كثيرا ، وحدث عنه جماعة من شيوخنا ، وقال لى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى لقد كان الدينورى بمصر يلعب به الأحداث ، ويتغامزون عليه ، ويسرقون كتبه ، وما كان ممن يكتب عنه محلل ، ثم قدم الأندلس فانجفل الناس اليه ، وازدحموا عليه ، أو كما قال] [1] .

وكان الطلاب يتجمعون حول تجار جهال من مقاطعات أخرى ، **أخذوا « حماما » سطحيا من التنوير** ، [ومن هؤلاء محمد بن عيسى بن رفاعة ، المعروف بالقلاس ، من أهل رية ، كان الناس يرحلون اليه من قرطبة وغيرها للسماع منه ، ثم استقدم إلى قرطبة يحدث فيها بمدينة الزهراء ، ثم انصرف عنها ، بعد أن نسب إليه الكذب وثبت عليه[2] .

وكان مسعود **بن خيران** ، من أهل بجانة ، وسكن قرطبة ، ورحل إلى المشرق تاجرا ، وسمع هناك سماعا كثيرا ، ولما انتقل إلى قرطبة دخلنا عليه لنكتب من حديثه فوعدنا أن يتفرغ لذلك ، ورأينا له كتبا كثيرة ، فتوفى وما علمت أن أحدا كتب عنه ، ولم يكن من أهل العلم ، إنما كان تاجرا] [3] .

وكل هذا أتى على الهيبة التى رفع عمدها علماء أخيار على امتداد الزمن ، وأقاموها حجرا فوق حجر .

وظلت الأمور تمضى على هذا النحو حتى عصر **الحكم المستنصر** (٩٦١-٩٧٦ م) **والمنصور** بن أبى عامر (٩٧٦ - ١٠٠٢ م) من بعده ، ومع أيامهما (الأول خليفة والثاني حاجبا حاكما) بدأت إسبانيا الإسلامية تشعر بأن فى ذرعها أن تستغنى بنفسها ، فقد أقام أبناؤها بذكائهم ، وصفاء ذهنهم ، ومهارتهم ، صرح الثقافة القومية عاليا ، ثم غمرهم الزهو أخيرا حين أحسوا بأنهم يطاولون المشرق علما ، وعندما أدركوا تفوقهم الواضح بدأوا يثأرون لأنفسهم ، ويردون على الاتهامات المزرية التى كان المشرق يوجهها اليهم فى الأعصر الأولى **من تاريخهم ، حين كان يصم الأساتذة الإسبان بأنهم جفاة غلاظ**[4] .

---

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ٢٠٣ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١٤٢٧ .

(٤) دوزى ، أبحاث فى أدب العصر الوسيط ، ط ٣ ، جـ ١ ، ص ٣٣ .

وأعاد أمراء المشرق مع علماء إسبانيا سيرة الأمويين الأندلسيين مع علماء المشرق من قبل ، فاتخذوا منهم أساتذة لأنفسهم ، ومؤدبين لأولادهم ، وأقاموا لهم المدارس يتولون التدريس فيها[1] . ومن أبرز هؤلاء الحافظ **أبو الخطاب ابن دحية** ، الظاهرى المذهب ، الأندلسى ، كان من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين ، وأحفظ أهل زمانة باللغة ، وأيام العرب وأشعارهم ، وصنف كتبا كثيرة مفيدة جدا ، وروى بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق العجم ، وكل ذلك فى طلب الحديث ، وسمع بالأندلس ، وببغداد ، وبأصبهان ، وبنيسابور ، وحصل الكتب والأصول ، وحدث وأفاد ، وكان من أعيان العلماء ، وولى قضاء **دانية** مسقط رأسه ، ثم حج وعاد إلى مصر ، فاستأدبه الملك **العادل** لولده **الكامل** ، وأسكنه القاهرة فنال بذلك دنيا عريضة ، ثم زادت حظوته عند **الكامل** ، وأقبل عليه إقبالا عظيما ، وكان يجله ، ويحترمه ، ويعتقد فيه الخير ، ويتبرك به ، ويسوى له مداسه حين يقوم ، **وبنى له دار الحديث الكاملية بين القصرين فى القاهرة** ، ولما عزله عنها رتب مكانه أخاه أبا عمر ، فلم يزل بها إلى أن توفى عام ٦٣٤ هـ .

أما أبو الخطاب فقد سبق أخاه إلى الدار الآخرة بعام ، إذ توفى « فى انفجار الفجر ، ليلة الثلاثاء ، رابع عشر ربيع الأول ، سنة ٦٣٣ هـ ، ودفن كلاهما بسفح المقطم بالقاهرة ، وشغل المنصب أندلسى آخر ، بعد وفاة ابن سهل القصرى القائم عليها عام ٦٤٢ هـ ، **وهو ابن سراقة** الشاطبى ، أبو عبد الله محمد ، « وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل ، وكثرة العلم ، والجلالة والنبل ، وأحد المشايخ الصوفية ، له فى ذلك إشارات لطيفة مع الدين والعفاف والبشر والوقار ، والمعرفة الجيدة بمعانى الشعر ، وكان صالح الفكرة فى حل التراجم ، مع ما جبل عليه من كرم الأخلاق ، واطراح التكلف ، ورقة الطبع ، ولين الجانب » ، « تولى مشيخة دار الحديث البهائية بحلب ، ثم قدم مصر وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، وبقى بها إلى أن توفى بالقاهرة فى شعبان عام ٦٦٢ هـ — ١٣٦٣ م ، ودفن بسفح المقطم »[2] .

---

(١) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٨٣٢ ، والمعجم ، لابن الأبار ، الترجمة رقم ٢١٥ ، طبعة مدريد .

(٢) أورد المؤلف هذه الفقرة موجزة جدا فى الهامش ، ثم أحالنا على المصدر الذى اعتمد عليه ، وجئنا بالنص كاملا ، مع شىء من التصرف ، أنظر : المقرى ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٩٤ وما بعدها ، طبعة إحسان عباس ، والجزء نفسه ص ٦٣ — ٦٤ . (المترجم) .

وكان أبو حيان الغرناطى أشهر هؤلاء جميعا ، [خرج من الأندلس عام ٦٧٩ هـ – ١٣٨٠ م ، واستوطن القاهرة بعد حجه ، وأصبح إمام النحاة بالديار المصرية ، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية ، وتولى التفسير بها أيضا ، والإقراء بالجامع الأقمر[١] . انتهت إليه رياسة التبريز فى علم العربية واللغة والحديث ، « وله التصانيف التى سارت وطارت ، وانتشرت وما انتثرت ، وقرئت ودريت ، ونسخت وما فسخت ، أخملت كتب الأقدمين ، وألهمت المقيمين بمصر والقادمين ، وقرأ الناس عليه ، وصاروا أئمة وأشياخا فى حياته ، وهو الذى جسر الناس على مصنفات ابن مالك رحمه الله تعالى ، ورغبهم فيها وفى قراءتها ، وشرح لهم غامضها ، وخاض بهم لججها ، وفتح لهم مقفلها ، وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب : هذه نحو الفقهاء ، وكان التزم ألا يقرىء أحدا إلا إن كان فى كتاب سيبويه ، أو فى التسهيل لابن مالك ، أو فى تصانيفه .

« وكان شيخا حسن العمة ، مليح الوجه ، ظاهر اللون ، مشربا بحمرة ، منور الشيبة ، كبير اللحية ، مسترسل الشعر فيها ، ولم تكن كثة ، عبارته فصيحة بلغة الأندلس ، يعقد حرف القاف قريبا من الكاف ، على أنه لا ينطق بها فى القرآن إلا فصيحة ، وسمعته يقول (الضمير يعود على الصفدى) : ما فى هذه البلاد من يعقد حرف القاف » .

« وكان فيه – رحمه الله تعالى – خشوع ، يبكى إذا سمع القرآن ، ويجرى دمعه عند سماع الأشعار الغزلية ، ويقول : إذا قرأت أشعار العشق أميل إليها ، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلنى ، وغيرهما ، إلا أشعار الكرم ما تؤثر فى » وخدم النحو « مدة تقارب الثمانين ، وسلك من غرائبه وغوامضه طرقا متشعبة الأفانين ، وتوفى رحمه الله تعالى بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة ، فى يوم السبت بعد العصر ، الثامن والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ودفن من الغد بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر »][٢] .

لم تكد المؤسسات التعليمية تنشأ فى المشرق حتى تولى الأساتذة الإسبان أمر التدريس فيها ، وخلفوا وراءهم ذكرى عطرة وشهرة مستفيضة ، فى حلب[٣] ، وفى دمشق[٤] ،

(١) مسجد الحاكم بأمر الله ، وهو الذى جددته طائفة البهرة بالهند على نفقتها هذا العام . (المترجم) .
(٢) الصفدى ، أعيان العصر وأعوان النصر ، نقلا عن نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٥٣٧ وما بعدها . (المترجم) .
(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ص ٨٨٠ ، طبعة أوربا .
(٤) ابن جبير ، ص ٢٧٣ .

وفى الإسكندرية والقاهرة ، وغيرها . وبلغ الأمر أن عالما إشبيليا متحمسا أقسم متحديا أن يذهب إلى البصرة حيث ألف سيبويه عالم النحو الشهير كتابه الذائع الصيت فى النحو ، لكى يبرهن لهم على أن بين الإسبان المسلمين من يستطيع أن يدرس اللغة العربية خير من أى إنسان فى العالم ، وأوفى بوعده[١] . وهو يشبه ما يمكن أن يقوم به الآن عالم من شيلى ، أو بيرو ، أو المكسيك ، يجىء إلى مدريد وينشىء مدرسة ليبرهن على أنه قادر على تعليم اللغة الإسبانية أفضل من أى أستاذ إسبانى .

والصفة الثانية التى يجب أن تشيع فى الأستاذ تدينه ، والتدين بداهة ليس شرطا فى القدرة على التدريس ، ولكنه ضرورى ، لأن عملية التعليم نفسها تتطلب أن يكون هناك من يرغب فى التعلم ، ومجرد الشك فى تدين الأستاذ يذهب بالطلاب بعيدا عنه ، وإذاً فلكى تكون أستاذا لابد أن يتوفر لك هذا الشرط الخارجى ، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه »[٢] .

ولا يكفى أن تكون مستقيما وعلى مذهب أهل السنة فحسب ، بل من الضرورى أن تجمع إليهما العمل بالمذهب المالكى ، وهو المذهب القومى للدولة ، وما أكثر الذين جاءوا من المشرق ، يفيضون حماسة وأملا ، ويزهون بما حملوا من جديد تعلموه ، وعلى وعد مع أنفسهم بأن يجعلوا منه مصابيح مضيئة ، فلما بدأوا دروسهم ، واستشف الطلاب اتجاههم ، أصبحوا وحدهم لا يجدون من يسمع منهم .

وقد سكن عبد الله بن وهب الطليطلى « مكة أحد عشر عاما ، وأكثر من الرواية عن رجالها وعن المصريين ، مؤلفا لمن قدم عليه مكة من آفاق بلاد المسلمين ، من طلاب العلم والعبادة ، حتى كان لا يشك أنه أعلى من يدخل الأندلس من أهلها ، فقدم الأندلس ، ولم يلبث أن مال إلى الدنيا ، فأمسك الناس عن الأخذ عنه لذلك »[٣] .

ورحل خليل بن عبد الملك بن كليب ، المعروف بخليل الفضلة ، إلى المشرق ، وكان يعلن بالاستطاعة ، مشهورا بالقدر لا يتستر ، وكان فى بدء أمره صديقا لمحمد بن وضاح ، ثم لما تبين أمره هجره ، ويروى عن أحمد بن بقى قال : سمعت أبا عبيدة يقول : حضرت

---

(١) ذكرت من العلماء من وقعوا فى ذاكرتى فحسب ، لأن القائمة طويلة لا تنتهى ، ودراسة تأثير الأساتذة الإسبان المسلمين فى البلاد الإسلامية خارج وطننا من الموضوعات الحببة إلى نفسى ، وأود دراستها يوما .

(٢) ابن خير ، ص ١٨ .

(٣) ابن الفرضى ، الترجمة ، ٢٦٢ ، طبعة الدار المصرية .

الشيخ ، يعنى بقيا ، وقد أتاه خليل ، فقال له بقى : أسألك عن أربع ، فقال : ما هى ؟ ، قال : ما تقول فى الميزان ؟ قال : عدل الله ، ونفى أن تكون له كفتان ، فقال له : ما تقول فى الصراط ؟ ، فقال : الطريق ، يريد الإسلام فمن استقام عليه نجا . فقال له : ما تقول فى القرآن ؟ فلجلج ولم يقل شيئا ، وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق . فقال له : فما تقول فى القدر ؟ فقال : أقول : ان الخير من عند الله ، والشر من عند الرجل . فقال له بقى : والله لولا حالة (هكذا) لأشرت بسفك دمك ، ولكن قم ، فلا أراك فى مجلسى بعد هذا الوقت . ولما توفى أتى أبو مروان بن عيسى وجماعة من الفقهاء ، وأخرجت كتبه وأحرقت بالنار إلا ما كان فيها من كتب المسائل(١) .

والشىء نفسه حدث لعبد الله بن محمد بن قاسم **بن هلال** ، من أهل قرطبة ، فقد رحل إلى العراق ، ولقى أبا سليمان داود بن سليمان القياسى ، فكتب عنه كتبه كلها ، وأدخلها الأندلس ، وغلب عليه المذهب الظاهرى ، فأخلت به عند أهل وقته(٢) .

ورحل إلى المشرق **أيوب بن سليمان** ، وجده الأعلى بلكايش بن إليان القوطى ، ودخل العراق فسمع بها ، وعاد ومعه كثير من كتب العراقيين ، وكان مائلا فى مذهبه إلى الحجة ، لهجا بالنظر ، لا يرى التقليد ، وكانت له وجاهة بعلمه ، وشرف أوليته ، المأثور بدخول الإسلام أرض الأندلس على يد جده إليان ، ومع ذلك انصرف عنه الطلاب ، فلم يستطع أن يدرس لأحد غير ابنه(٣) . وعاد محمد بن مفرج ويعرف بالفانى ، من أهل قرطبة ، يحمل كتبا جديدة ، وعلما وفيرا ، « وكان يعتقد مذهب ابن مسرة ويدعو إليه » فترك الناس الأخذ عنه(٤) . وأصبح بلا طلاب .

وأخيرا يجب أن نتذكر ما حدث لبقى بن مخلد(٥) ، وابن حزم(٦) ، وغيرهم .

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ٤١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، الترجمة ٦٥٥ .

(٣) ابن الفرضى ، الترجمة ٢٧٠ ، طبعة الدار المصرية .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٣٣١ .

● وفى الأصل رقم الترجمة ١٥٢٩ وهو خطأ « المترجم » .

(٥) انظر الصفحة ٣٢ من هذا الكتاب .

(٦) لمعرفة الصراع العنيف الذى دار بين ابن حزم وبقية الفقهاء يمكن العودة إلى :

● د. الطاهر أحمد مكى، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة القاهرة١٩٧٨، الطبعة الرابعة، مكتبة دارالمعارف .

● مقدمة «الأخلاق والسير» لابن حزم ، تحقيق د . الطاهر أحمد مكى دار المعارف الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

obeikandi.com

وعلى النقيض من ذلك ، كل من تميز بأنه عدو لدود لكل تجديد ، وكل من فاضت حماسته بمكنونها ، فشتم ، أو ضايق بقية الفرق الأخرى ، وبرهن على تمسكه بمذهب أهل السنة ، وقال كلاما مرعبا عن بقية المذاهب ، أو كتب يشهر بها ، ويلقى التهم جزافا على أتباعها ، مثل هذا العالم يمتلىء درسه بالطلاب ، تجذبهم إليه هالة تحيط به من الاستقامة والنزاهة ، وأحيانا لا ترى العامة فضائل إيجابية للعالم إلا من خلال العنف الذى يلاحق به أولئك الذين يخالفون مذهبهم ، ولا يحظى بهذا اللقب عندهم إلا من اضطهد الآخرين ، واحتقر آراءهم ، دون نظر إلى فضائله الذاتية نفسها .

وبعض العصور تتسم بلون من الهدوء والسلام ، فتخف معه حدة ملاحقة أصحاب المذاهب المعارضة ، غير أن هذه الهدنات كانت قليلة فى إسبانيا الإسلامية ، أولا :لأن الحاجة ماسة للحفاظ على العمل موحدا ، والعقيدة واحدة ، فى مواجهة المسيحيين واليهود الذين يعيشون بينهم ، وفيما بعد لجمع شمل المقاطعات التى انفصلت على شعور واحد ، يستطيع أن يحملهم على العمل معا جميعا ، لإنقاذ أنفسهم من الخطر المشترك متمثلا فى تفوق البلاد المسيحية حربيا واجتماعيا على نحو مخيف ، وبدأت تستولى على المدن الإسلامية واحدة إثر أخرى ، والموقفان ، وكلاهما صعب ، لا يتيحان لهم الهدوء والاستقرار الذى يؤدى إليه النظام الداخلى المحكم ، والأمن من التهديد الخارجى ، وهما أمران لم تتمتع بهما إسبانيا الإسلامية إلا فى فترات قصيرة .

وفضلا عن هاتين الصفتين الجوهريتين : العلم والدين ، كانت هناك صفات أخرى موضع التقدير الكبير فى الأستاذ ، ومنها تحرى الصدق ، حتى فى الأمور التى لا تتصل بالعلم ، لأن افتقاده يمكن أن يؤدى إلى نتائج سيئة ، وألا يكون صاحب عادات سيئة تؤخذ عليه ، فمثل هذا لا يمكن أن يوكل إليه أمر قيادة الشبيبة فى اطمئنان ، وكان مالك رضى الله عنه يقول :« لا تأخذوا العلم عن أربعة ، وخذوا عمن سواهم :لا يؤخذ من سفيه ملعن بالسفه وإن كان أروى الناس ، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه بكذب على رسول الله ﷺ ، ولا من شيخ له عبادة وفضل إذا كان لا يعرف الحديث »[1] .

وعلى الأستاذ أن يكون فى درسه بشوشا ، واجتماعيا ، سخيا فى ملاحظاته ، وأن يتوقى التدليس فى الرواية ، وأن يتزين بالتقوى ، وأن يبتعد عن التلاهى فى الأمور لئلا

(١) فهرسة ابن خير ،ص ١٩ .

تنفر نفوس طلبة الحديث منه ، ويزهدون فى الحمل عنه ، وأن يحرض الطالب ، ويرغبه فى العلم[1] وأن يكون معه ما يكونه الأب لابنه ، أو الاخ لأخيه ، وأن يكون له المثل الأعلى[2]. وأدى هذا فى واقع الحياة إلى وجود علاقات ود حنون ، ومودة صادقة ، بين الأستاذ وطلابه .

وما يمكن أن نقوله عن الطرق التربوية المستخدمة قليل ، ولكننا نعرف أن الأساتذة كانوا يستخدمون الوسائل الذكية واللطيفة كى يحببوا طلابهم فى الدرس ، ويثيروا فيهم روح المنافسة ، ويحركوا فيهم عوامل الفهم والفكر والاستنباط ، ويسهلوا لهم التعليم[3] . ولكن الأمر لم يبلغ حد المنهج الواضح السوى ، وإنما هى العادات والتقاليد التى تحدثنا عنها ، ولا تجاوز ، فيما أعتقد ، الطرق التى يمكن أن يهتدى إليها المرء من خلال تجربته الشخصية ، نعم إن الذين عرضوا للقضية فى رسائلهم ، وقالوا ما فيه الكفاية ، أو جزوا كل ما يرونه فى فضيلة تربوية واحدة، امتدحوها، وأثنوا عليها فى إصرار شديد : الصبر !

● **السن ، والملابس ، والمرتبات ، وغيرها :**

فيما يتصل بالسن التى يستطيع فيها المرء أن يمارس مهنة التدريس لم يكن ثمة قانون يحددها ، ولا قاعدة تحكمها ، وكل من يرى فى نفسه الكفاءة ليكون أستاذا يمكن أن يمارس المهنة فى الحال ، والطلاب وحدهم يقررون حظه من الفشل والنجاح ، وحتى الطلاب أنفسهم يستطيعون أن يتبادلوا الدروس فيما بينهم ، وأن يصبح بعضهم أستاذا للآخرين وإذا كان احتراف التدريس لا يتوقف على سن محدودة ، فهو أيضا لا يتطلب أية إجازة علمية ، وحتى إذا طالب بهذه متشكك أو متردد فمن السهل تقديمها له ، مادام المدرس قد حضر دروس المادة على أى أستاذ ، لأن الأساتذة هم الذين يمنحون الإجازات لطلابهم عندما ينتهون من دراسة المادة ، أو الكتاب المحدد ، ولكن العادة جرت بألا يكون للأستاذ حلقة معروفة يتردد عليها طلاب كثيرون إلا عندما ينضج سنا ، وينال مع الزمن شهرة مستفيضة ، ويتردد اسمه فى الأسماع وعلى الألسنة ، ويقتنع جيل بأكمله بفضائل شخصه تدريجا . والحق أن أغلبيه الأساتذة فى التعليم العالى لم يكونوا يقدمون على

(١) فهرسة ابن خير ، ص ٢٠ .

(٢) ابن بشكوال، الصلة ، الترجمة ١٢٦٤ طبعة مدريد ، والتكلملة لابن الأبار ، الترجمة ٨٣٦ ، طبعة مدريد .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترمة ١٢٦٤ ، والتكملة ، الترجمة ١٥٥٩ .

اقتحام عبابه إلا أن تتقدم بهم السن ، وحتى بعد أن تدركهم الشيخوخة ، وبعضهم ينتهى به المطاف أستاذا بعد أن طوف بعدد من الوظائف العامة زمنا .

وتدريس بعض المواد مثل الفقه والتوحيد يتطلب وقارا أزيد ، على نحو ما ، كأن يضحك المشيب برأس الأستاذ أو لحيته ، لأن من خصائص الشباب سهولة انزلاقه إلى دعوات التجديد ، ولم يكن لقب « شيخ » يطلق على المدرسين إلا عندما يبلغون الخمسين من عمرهم .

يمكن أن نتخذ من أبى على الشلوبينى ، النحوى الشهير ، مثلا على نضج الأستاذ قبل الأوان المعتاد ، وبلوغ هذه المكانة فى زمن مبكر ، وممارسة المهنة طوال أعوام كثيرة ، فقد تولى التدريس وهو فى العشرين من عمره ، ثم واصله على امتداد ستين عاما ، حتى حرمته منه علل الشيخوخة(١) .

وحتى مع تقدم السن لم يكونوا شيوخا يلف ذكاءهم ضباب معتم ، لأن التقاعد يصيبهم فى اللحظة المناسبة التى لا تخطىء أبدا ، فهو لا يصدر به قرار وزارى ، ولا يتم بناء على طلب صاحبه ، وإنما يحدد الطلاب ساعته حين يلحظون تراجع الصفاء العقلى لأستاذهم أمام الشيخوخة الزاحفة ، دون أن يرتبط الأمر بأية إشارة تومىء إلى عجز الأستاذ ، فلم تكن ثمة لائحة يجب السير عليها ، وإنما الفائدة وحدها هى القاعدة ، فإذا غابت انسحبوا فى هدوء ، واحدا وراء آخر ، إلى أستاذ ثان يجدون عنده ما يبتغون .

ولم يكن للأساتذة زى محدد يميزهم عن غيرهم ،وإن جرت العادة أن الأشياخ المعظمون وحدهم ، من بين كل الخاصة والعامة ، هم الذين يضعون الطيلسان على رءوسهم ، وأنهم وحدهم الذين يرخون الذوائب أيضا ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى(٢) . ولكن ذلك كما نرى يشمل العلماء الأساتذة مثل عبد الملك بن حبيب ، وكان يجلس للإقراء فى ملابس غالية ، بعضها من « السعيدى » ، وهو حرير ينسج فى اليمن ، وكان يرى ذلك توقيرا وإجلالا للعلم الذى يقرئه . ومهما يكن فإن أفضل زى يرتديه الأستاذ من الحرير فى كل زمن أن يكون فى رأسه شيء يقوله للطلاب .

---

(١) التكملة ، الترجمة رقم ١٨٢٩ .

(٢) ابن سعيد المغربى ، فى نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٣٧ ، طبعة أوربا وجـ ١ ص ٢٢٢ ، إحسان عباس .

قلنا إن التعليم العربى كان فى البدء دينيا خالصا ، وعندما انتشر الإسلام بين البلاد المفتوحه أصبحت معرفة العربية واجبا ملحا بين الذين اعتنقوه . كيف حدث لهم أن ذلك يمكن أن يثابوا عليه فى الدنيا ؟ . ولكن ما إن انتشرت العقيدة الإسلامية حتى أصبح واجبا أخلاقيا أن يتعلم الناس ، ومع الإحساس بالواجب جاءت المكافأة على التعليم ، وعرف المدرسون الرواتب . وقد احتاجت إسبانيا الإسلامية أكثر من غيرها ،كنقطة تلتقى عندها الحدود مع دول أخرى ، أن تعطى المثل ، وأن تكون القدوة ، فى جذب الناس إلى العقيدة الإسلامية وفى الدفاع عنها ، ومر زمن طويل ظل فيه التعليم مجانا ، وطالت هذه الفترة فيها أكثر مما طالت فى أى بلد إسلامى آخر ، دون أن تتحول إلى مهنة ، أو يتلقى عنها القائمون أجرًا أو مكافأة .

وقد عرضت كتب الفقه المالكى للقضية ، وسبق أن أشرنا إلى أن مبادىء المذهب المالكى تأصلت فى إسبانيا ، وناقشت فى إفاضة : هل يباح للمدرس أن يقبض على دروسه أجرا أم لا . والأجر فى مهنة التدريس ، كان رأيهم ينصرف فى المقام الأول إلى تعليم القرآن الكريم بوصفة واجبا دينيا ، ولكنهم أباحوه فيما يتصل بمواد التعليم الأخرى غير الدينية ، لأن معرفتها ليست فرضا على الجميع ، ومع ذلك فهم يتفقون جميعا على جواز قبول العطايا والهبات فيما يتصل بتدريس القرآن الكريم ، بل يبيحون أن يحدد المدرس سلفا كل الشروط التى يمكن تصورها ، وفى صالحه ، وترفع من شأنه . وفيما يتصل بتدريس الفقه ، والفرائض ، والنحو ، والشعر ، والبلاغة ، خلاف كبير ، ونقاش طويل ، وتردد وعدم حسم ، هل يجرى عليها ما يجرى على القرآن الكريم أم لا . ولذلك تفسير تاريخى فيما رأى : لقد بدأ المسلمون بتعليم القرآن أولا ، فأصبح تعليمه مهنة قبل غيره من بقية المواد ، يدفع عنه الطالب أجرا ، ويقبض المدرس راتبا ، فلما تكونت المذاهب الفقهية وجدت نفسها مضطرة إلى إباحة الأجر عن تعليم القرآن الكريم ، طبقا للتقاليد السائدة ، غير أنها ترى القيام به واجبا ، وتدعو إلى تدريسه مجانا ، واعتبرت قبض الأجر حراما فى تدريس بقية المواد الأخرى .

ولكن شدة التمسك بالأخلاق فى مجال التعليم بدأت تتراخى شيئا فشيئا ، فانتهى الحال بالفقهاء أخيرا إلى إباحة قبول العطايا ، لا فى تعليم القرآن الكريم فحسب ، وإنما أيضا فى تدريس الفقه ، وكتابة الرسائل ، والتاريخ ، وغيرها . وهذا الرأى الذى انتهيت إليه يمكن أن تطمئن له إذا قرأت صيغ الوثائق ، وما أتيت به منها فى الملحق دليلى فى

هذا المقام ،وفى رأيى أنها مادة تاريخية ممتازة ، أفضل مما ورد فى كتب الفقه ، لأن الأولى تتصل بالتطبيق العلمى ، والاستعمال الجارى ، والثانية ، وأعنى بها كتب الفقه ، تتقف عند التنظير ، والشروط التى تعرضها قد لا تنفذ أحيانا ، ومن ثم يجب أن نتناولها بحذر شديد قبل أن نفيد منها ، أو نعطيها قيمة تاريخية . ومن المؤسف أن تبقى مثل هذه الوثائق دون نشر . لأنها تفيدنا أحيانا أكثر مما تفيدنا المدونات التى عنيت بالملوك[1] ، ويمكن البرهنة على ما انتهيت إليه فى دراستى بما كان يحدث فى إسبانيا فعلا .

نحن نعرف أن الأساتذة القدامى فى إسبانيا الإسلامية ، وحتى الذين بلغوا منهم شهرة مستفيضة ، كانوا يمارسون مهنة ما ، أو عملا يدويا يتعيشون منه ، إذا لم يكن لهم فيما ورثوا عن أسلافهم ما يعينهم على العيش ، وإن أحدهم ليبذر الحب فى حقله ، ومقطفه معلق بكتفه ، بينما الطلاب على مقربة منه ، ينشدون الشعر ، أو يقرأون فى الكتب ، وثان يوجه التلاميذ دون أن يترك عمله فى المصنع ، وآخرون كثيرون يدرسون فى المساجد ، بعد أن أمضوا سحابة نهارهم يكافحون بعرق جبينهم من أجل لقمة العيش[2] . وكان قبول الأجر يومها يعتبر خدشا للحياء .

وكان عبد الأعلى بن وهب بن عبد الأعلى رجلا عاقلا ، حافظا للرأى ، مشاركا فى علم النحو واللغة ، متدينا زاهدا ، ينسب إلى القدر ، ويذهب إلى أن الأرواح تموت ، وبينما ذات يوم فى حديقته ، جالسا فى سرير مرضه الذى حمله إلى الموت ، وحوله تلاميذه ومريدوه ، وبينهم فتى يعمل فى قصر الخلافة يدعى عبد الرحيم ، بدأ الأستاذ يأسى لعلل الشيخوخة من ضعف وإنهاك ، وقال لهم : أرى الموت حق ، ولكن ما يحزننى أننى عاجز كل العجز عن رد مبلغ اقترضته ، وسأموت وفى نفسى غصة ومرارة من عدم سداده . وعندما سمع الطلاب كلامه بدأوا يدعون له ، ويصلون من أجله ، ولكن الفتى عبد الرحيم انتهرهم قائلا : يدهشنى موقفكم ، وما أنتم عليه من علم يعود فضله إليه ، حضرتم درسته ، واغتنمتم علمه ، وتسمعون أسفه لعجزه عن سداد دينه ، وترون ما يسبب له ذلك من حزن وألم ، وكلكم مقتدرون ، تستطيعون دفعه دون تضحية ، ومع ذلك لا تصنعون له شيئا غير الصلاة والدعاء ، ثم توجه إلى أستاذه قائلا : أنا كفيل

---

(١) كان ذلك طبعا فى الزمن الذى كتب فيه ريبيرا دراسته هذه فى نهاية القرن الماضى ، أما فى هذا القرن فقد قطع المستشرقون الإسبان شوطا .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة ٥١ ، وابن الفرضى ، الترجمة ١٥٩٥ .

بسداده ، وتركهم وذهب ليدفع ٥٠٠ دينار إلى صاحبها ، وهى قيمة الدين الذى كان على الأستاذ[١] .

ويروى تلميذ **لأبى على الغسانى** ، « أنه سمع عليه يوما ، ودفع إليه جملة من المال جزاء على ذلك ، فأخذه ووضعه على رأسه ، وقال : لا آخذ على هذا شيئا أبدا ، ولو أخذت من أحد لأخذت منك »[٢] .

ومن المؤكد أن كثيرين كانوا يلقون دروسهم مجانا ، بعضهم لكى يجذب الطلاب ، ويشيع اسمه بين الناس ، وبعضهم صلاحا وتقوى ، وحمية دينية ، وآخرون تسلية وحبا . **فابن وضاح اللخمى** ، **محمد** بن إبراهيم ، من أهل غرناطة ، رحل حاجا فأدى الفريضة ، ودرس القراءات بمكة ، ودخل بغداد ، وأقام فى رحلته نحوا من تسعة أعوام ، وقفل إلى الأندلس ، فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية ، وأقرأ بها القرآن نحوا من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجرا ، ولا قبل هدية ، وكان رجلا صالحا ، زاهدا يشار إليه بإجابة الدعوة ، معروفا بالورع والانقباض[٣].

وكان عبد الله **بن الزيات** القرطبى ، فى أول أمره ، تاجرا ذا ثروة ، فتصدق بماله ، ورغب فى الزهد ، واعتزل أهله ، وأقبل على قراءة القرآن ، وطلب العلم والدرس إلى أن توفى[٤]. وعلى بن هذيل البلنسى ، لا يجد أية متعة إلا فى التفاف الطلاب حوله ، يحملهم إلى ضيعته ، بعضهم يقرأ صامتا ، وآخرون فى صوت مرتفع ، وهو يقوم على توجيههم ، ويمضى معهم الحياة على هذا النحو سعيدا . كيف يقبض مثله على درسه أجرا ؟ ذلك المسرف الذى لا يتوقف خلاف زوجته معه ، لأنه يتصدق بكل ما يقع فى يده ، ويوشك أن يترك أولاده على بابِ الله الكريم ![٥] .

ولكن المثل الأروع فى هذا الجانب ضربه لنا ابن كوثر سعيد الطليطلى ، يقول أحد تلاميذه : « كنت آتى إليه من قلعة رباح ، وغيرى من المشرق[٦] . وكنا نيفا على أربعين

---

(١) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٦٦٠ ، وهى لا توجد إلا فى طبعة مدريد ، ولم يتيسر لى فى القاهرة ، ولذلك ترجمت النص من الإسبانية . « المترجم » .
(٢) المعجم لابن الأبار ، الترجمة ١٢٢ .
(٣) التكملة ، الترجمة ٨٢٨ [ونفح الطيب ، ١٦٠/٢ طبعة إحسان عباس] .
(٤) التكملة ، الترجمة ١٢٥٩ ، طبعة مدريد [ت ١٩٢٢ طبعة مصر] .
(٥) المصدر السابق ، الترجمة ، ١٨٥٨ ، طبعة مدريد .
(٦) مشرق الأندلس طبعا . « المترجم » .

تلميذا ، فكنا ندخل فى داره فى شهر نونبر ، ودجنبر ، وينير ،[1] . فى مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات ، والحيطان باللبود من كل حول ، ووسائد الصوف ، وفى وسطه كانون فى طول قامة الإنسان مملوء فحما ، يأخذ دفئه كل من فى المجلس ، فإذا فرغ الحديث أمسكهم جميعا ، وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب ، وأيام ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد ، فنأكل تلك الثرائد حتى نشبع منها ، ويقدم بعد ذلك لونا واحدا ، ونحن قد روينا من ذلك الطعام ، فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ، ولا نتعشى حت نصبح إلى ذلك الطعام الثلاثة الأشهر ، فكان ذلك منه كرما وجودا وفخرا ، لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة »[2] .

ولابد من الإشارة إلى أن عادة رفض العطايا والهبات كانت متأصلة تماما فى إسبانيا الإسلامية فى العصور الأولى ، وحتى فيما بعدها بزمن طويل ، وحدث أن جمهرة من الطلاب الإسبان المسلمين سافرت إلى مصر للدراسة على كبار فقهاء المالكية فيها ، فوجدت **ابن أخى ابن وهب أسهل** ، فجمعوا له الدنانير ، وأعطوه إياها ، فقرأ لهم موطأ عمه وجامعه ، فصار فى نفس **محمد بن فطيس** شىء من ذلك ، وكان أحدهم ، يقول : « فأردت أن أسأل **ابن عبد** الحكم عن ذلك ، وكنت أقرأ عليه رأى **أشهب** ، فخشيت إن سألته فى أول المجلس عن ذلك أن يحرج على ، إذ كانت فيه حدة . فلما قرأت عليه بعض الكتاب قلت له : أصلحك الله ! ، العالم يأخذ الأجرة على قراءة العلم . قال : فضرب الدفتر الذى كان بيدى من أسفله حتى ارتفع إلى وجهى، وشعر فيما ظهر لى إنما سألته عن ابن أخى ابن وهب ، فقال لى: جائز عافاك الله ! ، أن لا أقرأ لك إلا ورقة بدرهم، ومن أخذنى أن أقعد معك طول النهـــار، وأدع ما يلزمنى من أسبابى ونفقة عيالى[3] .

وهذه الحادثة تبرهن على أن عادة عدم دفع الأجور والأتعاب للأساتذة جعلت الطلاب أنفسهم يرون أن هذا حقا لهم ، وأنه يجب على المدرسين ، فى بعض الحالات على الأقل ، أن يعطوا دروسهم مجانا دون مقابل .

---

(١) أشهر نوفمبر ، وديسمبر ، ويناير ، على التوالى . « المترجم » .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٧١ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) الضبى : بغية الملتمس ، الترجمة ٢٥٢ ، طبعة أوربا .

وفى مثل هذا الجو من السخاء لم تكن مهمنة التدريس تبشر بمستقبل مرموق ، وربما كان ابن عبد البر يشير إلى مثل هذه الحالة فى هذه الأبيات من شعره :

إذا جمعت بين أمرأين صناعةً ... فأحببتَ أن تدرى الذى هو أحذقُ

فلا تتأمل منهما غير ما جرت ... به لهما الأرزاق حين تفرقُ

فحيث يكون الجهلُ فالرزق واسعٌ ... وحيث يكون العلمُ فالرزق ضيقُ(١)

ولكن مثل هذه البطولة لا يمكن أن تكون عامة أو لا يتأتى لها أن تدوم ، وإنما أصبح العادى قبول العطايا أو الأتعاب فى شكل هدايا ، ودون تحديدها مقدما ، سواء بالتعاقد أو بأى وسيلة أخرى معروفة بين الطلاب والأساتذة ، ثم جاء الوقت الذى لم يكن ينقص من قدر العالم أن يعمل مؤدبا للملوك والأمراء .

[فاختار الخليفة **الحكم المستنصر الفقيه القسطلى** ، أحمد بن محمد بن يوسف ، لتعليم ولده الأمير **أبى الوليد هشام** ، وأحسن وصاته به ، ورسم له فى تعليمه وتدريجه رسوما أقاده عليها ، ولم يعد عنها ، نفع الله الولد بها ، وكان قد أمر بتطرية الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء وتنجيدها ، وإقامة كل ما يحتاج إلى إقامته وإعداده بها ، وفى الطريق إليه ، وفتح « باب غربى » فى فصيل الفتيان بها ، ليقترب عليه الخروج منها إلى هذه الدار ، فيكون قعوده مع مؤدبه المذكور فى المجلس الشرقى منها ، بأيمن طائر ، فقضى ذلك كله ، وأحكم شأنه ، فكان جلوس الأمير أبى الوليد مع معلمه فى المجلس المذكور ،من الدار المحدودة ، يوم الخميس لخمس خلون من شهر رمضان (سنة إحدى وستين وثلاثمائة هجرية) واستخف **الخليفة الحكم** السرور بما هيأه الله من ذلك ، إلى أن برز إلى هذا المجلس نهاره هذا ، لتقع عينه على ابنه ، وتشاهد كيف صبره على الثقاف الذى لزه ، فعاين من ركانة مجلسه ، وطلاقه وجهه ، إقباله على معلمه ، وسكون جأشه . ما قرات به عينه ، وتجددت مع سرته ، فبادر بإخراج مال واسع إلى صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر بعينه ، ليفرقه على الضعفاء والمساكين وأبناء السبيل ، شكرا لله على جليل منته عليه ، فى قرة عينه ، وسلالة مجده ، وعهد بعقد استئمار الفقيه **أحمد** بن يوسف معلم الأمير **أبى الوليد هشام** بإجراء الرزق عليه : الراتب والحملان والعلوفة ،

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٣٢٠ .

وعهد بإقامة علوفة للأمير أبي الوليد محدودة العدد ، موصوفة الأطعمة ، تقدم إليه وإلى من معه من صبيانه كل يوم بموضع حضارة ذلك ، وأمر بتقديم ذكاء ، الوصيف الكبير الخصى ، ناظرا للأمير أبي الوليد ، قيوما على جميع صبيانه ، متكفلا لشأنه »] [(١)] .

[وكان **الرباحي** ، محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى النجوى ، « فقيها ، إماما ، موثوقا ، أخذ كتاب سيبويه رواية عن ابن النحاس ، وكان جيد النظر ، دقيق الاستنباط ، حاذقا بالقياس ، نظر الناس عنده في الإعراب ، وأدب عند الملوك ، وأستأدبه أمير المؤمنين الناصر ، رضى الله عنه ، لابنه المغيرة ، ثم صار إلى خدمة المستنصر بالله في مقابلة الكتب ، وتوسع له في الجراية »] [(٢)] ، وقد سلك الأغنياء الموسرون هذا الطريق أيضا ، وهكذا أصبح التدريس وسيلة ناجعة إلى حياة طيبة[(٣)] .

وكان الأساتذة أحرارا في اختيار المكان الذى يدرسون فيه ، يقيمون حيث يشاءون ، ويدرس الواحد منهم ما يرى نفسه كفئا للقيام به ، ويعتقد أنه يجيده ، وكان لبعضهم مقر ثابت ، وآخرون لا يستقرون في مكان ، فهم يلقون دروسهم في قرى مختلفة[(٤)] .

ولأنه لم تكن هناك مؤسسات قائمة يتنوع فيها الأساتذة المربون ، أو يتغيرون فيذهب بعضهم ويجىء آخرون ، بين حين وآخر ، ولأن المدرس الواحد يقوم بتدريس مواد عديدة لتلميذ واحد ، فقد تأصلت العلاقة بين الاثنين ، الأستاذ والطالب ، واتسمت بالود الحنون ، والحنان الصادق في الدرس وبعيدا عنه .

وكانت وفاة الأستاذ تعنى موت مؤسسة ، ومن ثم فإن تلاميذه يبكون ذهابه في حرقة صادقة ، وحزن عميق ، ويعبرون عن حبهم له فيحملون نعشه على أكتفاهم ، ويجسدون مشاعرهم في قصائده من الرثاء ، ومعها يدخل اسم الأستاذ أحيانا عالم الخلود .

---

(١) اكتفى المؤلف بالإشارة إلى هذا النص ، وأحالنا على مصدره ، وجئت به كاملا لأهميته ، فهو يلقى ضوءا كاشفا على طريقة تأديب الأمراء ومعاملة مدرسهم ، في هذه الحقبة البعيدة من تاريخ التربية في الإسلام ، في أواخر القرن العاشر الميلادى ، انظر : ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الذى نشره الدكتور عبد الرحمن على الحجى عام ١٩٦٥ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، وقد رجع إليه ريبيرا مخطوطا .

(٢) ابن الفرضى ، الترجمة ١٢٩٢ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) ابن الفرضى ، الترجمة ١٣١٦ ، والرقم خاطىء ولم أستطع الاهتداء إلى الصواب ، والتكملة ، الترجمة ١١٦٦ .

(٤) التكملة ، الترجمة ٥١٧ .